

# « مجندون يشهدون » ..

بقلم الكاتب الفرنسي الكبير  
جان بول سارتر

هذا مقال كان الكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر قد كتبه لاحدى الصحف اليومية الكبرى في فرنسا . ولكن الصحيفة رفضته ، فنشره سارتر في مجلته « الازمنة الجديدة » ( العدد ١٣٥ ) وفيه تحليل عميق لنفسية الفرنسيين تجاه قضية الجزائر المكافحة ، وفضح لهذه النفسية الخاضعة لحملة الدعاية والتضليل والتزييف التي تشنها السلطات الفرنسية منذ وقت طويل .

ولعل القراء يذكرون الدراسة الرائعة التي كان سارتر قد كتبها في العام الماضي عن « نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر » ونشرتها ( الآداب ) في العدد السادس ١٩٥٦ . فلا بد لنا هنا من ان نوجه تحية اخرى الى هذا الكاتب الفرنسي الحر الذي لا بد ان ينتصر صوته في النهاية على اصوات الدعاية والاجرام .



الكتيب ، اوصي جميع الذين لم يعرفوه بعد ، واتمنى ان يقرأه جميع الفرنسيين . ذلك اننا مريضون ، مريضون جدا . . ان فرنسا المحمومة الراكمة ، المأخوذة بأحلام مجدها القديمة وباستشعار خجلها ، تتخط وسط كابوس مبهم لا تستطيع التخلص منه ولا تستطيع سبر غوره . فاما ان نرى بوضوح ، واما ان نفجر .

فمنذ ثمانية عشر عاما ، نرى بلادنا واقعة ضحية ما سماه القانون « عملية قتل المعنويات » والحق ان قتل معنويات امة لا يكون اولا بتخريب معنوياتها ، وانما يكون بحط اخلاقيتها . اما الطريقة ، فيعرفها الجميع : فحين القوا بنا في مغامرة حقيرة ، وضعوا في نفوسنا ، من الخارج ، شعورا بالذنب الاجتماعي . ولكننا نصوت ، ونمنح السلطات ، ونستطيع بطريقة ما ان نسحبها : فان اندفاعات الرأي العام تسقط الوزراء ، وينبغي ان تكون شخصا ضالعين بالجرائم التي ترتكب باسمنا ، لان بوسعنا ان نوقفها وهذا الشعور بالذنب الذي يستريح في نفوسنا ، جامدا ، غريبا ، ينبغي ان نأخذه لحسابنا ، وان نذل وندنو لنستطيع احتمالاه .

على اننا لم نسقط الى مثل هذا الدرك لنستطيع ان نسمع صراخ طفل معذب ، من غير ان نشعر بالهول

نشرت اخيرا مجموعة من الشهادات والوثائق عن الطرق التي نتبعها في الجزائر لاجلال السلام ، وذلك في كتاب عنوانه « مجندون يشهدون » Des Rappelés témoignent . فهل قرأتموه ؟ ان هؤلاء العائدين مسيحيون ، كهنة ، رجال دين مجندون . وقد يبدو معقولا ان تختلف آراؤهم على صعيد السياسة العامة ، وان كانوا لم يذكروا من ذلك شيئا . ولكنهم يملكون الارادة المشتركة في ان يكشفوا عن هذا القرح - الذي ما زال بعيدا عن ان يشمل الجيش كله ، غير انه بات من المستحيل تعيين مكانه بالضبط - وعن تلك الممارسة المنظمة العنيدة للعنف المطلق . فهناك الوان من السلب والنهب والاعتداء على اعراض النساء وانواع من الانتقام من السكان المدنيين ، ومن الاعداد بالجملة وبلا محاكمة ، ومن اللجوء الى التعذيب لانتزاع الاعترافات او المعلومات . والواقع ان هؤلاء الشهود لا يخفون شيئا ، ويفضحون جميع جرائم الحرب التي ارتكبت تحت انظارهم . والحق ان هذه الشهادات المعتدلة ، الذكية ، الحريصة على انصاف الجميع ، حتى اشد الناس اجراما ، انما تؤلف وثيقة مرهقة الى ابعد الحدود . وان تلاوتها امر غير محتمل على الاطلاق ، فعلى القارئ ان يجاهد لينتقل من سطر الى سطر . ومع ذلك ، فاني اوصي بقراءة هذا

والارتعاد (١) . وكم يكون كل شيء سيرا ، وكم سهل رد الامر الى نصابه ، لو ان هذه الصرخات تطرق آذاننا . ولكنهم في الواقع يقدمون لنا المعروف بخنقها . ليس ما يقتل معنوياتنا هو القحة وليس هو البغض ، كلا ، انما هو الجهل الزائف الذي يعيشوننا فيه والذي نسهم نحن انفسنا في الابقاء عليه . ان حاكمينا ، لشدة حرصهم على تأمين الراحة لنا ، لا يتورعون عن ان يلغموا حرية التعبير ، فاما اخفاء الحقيقة ، واما غربلتها . حين يقتل الثوار اسرة اوروبية ، لا توفر علينا الصحف شيئا من اخبار هذه الجزرة ، حتى ولا صور الاجساد المقطعة ، ولكن حين لا يجد محام مسلم اي ملجأ من جلاديه الفرنسيين الا الانتحار فان الخبر يشار اليه بثلاثة اسطر « مراعاة » لحساسيتنا . فالاخفاء والخداع والكذب واجب على مخبري فرنسا ، والجريمة الوحيدة هي **تعكير صفونا** . ولقد اثبتوا ذلك للسيد بايرغا Peyerga : فليس ثمة في الجزائر من يفكر في انكار الحوادث التي رواها ، وانما يؤخذ عليه فقط انه رواها لنا . اننا فرنسيون ، وهناك جنود فرنسيون يقتلون بلا وعي في شوارع مدينة الجزائر تحت انظار السكان الاوروبيين المتعاطفين للحرب ، ولكن هذا ليس من شأننا . ان حقيقة افريقيا هي خمر قوي جدا ، اقوى من ان تحتمله ادمغتنا الطرية : فما عساه يصيب العمرين اذا سكرت البلاد الفرنسية ؟ ان الهدوء هو ما نحتاج اليه ، فترة استجمام ، بعض الوان التسلية : فمند وفاة لويس السادس عشر ، اصبح كل فرنسي حقا يتيما ، وان حكومة موليه تعرف حداد طبقتنا البورجوازية وتقاسمها اياه ، ولما كانت لا تتأخر عن اية تضحية ، فقد نصبت ملكة انكلترا ، ثلاثة ايام ، على عرش فرنسا (٢) . فما الذ ذلك وافتنه ! ان الناس يتحدثون فيما بينهم من غير ان يعرف بعضهم بعضا ، وهم يتماسكون بالايدي ويرقصون . . ومع ذلك ، فان في الجزائر رجالا اشداء يتابعون عملهم : فليست للجلادين ايام عطلة او عيد ، وان الراديو يحمل اليهم تهديدات نشوتنا ، فيقولون في انفسهم « اما وقد حصلوا الآن على ملكتهم ، فليدعونا وشأننا ! » . وقد ذهبت الملكة ، وهي تستريح في قصر وندسور ، فاذا فرنسا ، وقد استبد بها الحب ، تسقط مريضة وتلزم السرير ، واذا الحكومة الفرنسية تدير على اطراف اصابعها . « لا تقلقوا نومها » . ومع ذلك ، فاذا اتفق لاحدنا ان يفتح عينه وان يسأل ممرضيه ، فسرعان ما تلجأ الحكومة الى حيلة اخرى : ففي خطة قلم ، تصنع لجنة للحماية ليست لها من مهمة اخرى غير تخفيف مسؤولياتنا . « هناك تجاوزات وسوء تصرف ؟ ربما ، ولكن مرة او مرتين . ولا بد من مثل ذلك في الحروب . ولكن ما الذي يهمكم ؟ انكم بعيدون عن مدينة الجزائر ، وانتم لا تعرفون القضية ، فالولوا ثقتكم اذن لجنة الحماية هذه . سوف نؤلفها من

(١) راجع الصفحتين ١٠ و ٥٩٩ من « مجنونون يشهدون »

(٢) بشير الكاتب الى زيارة ملكة انكلترا اخيرا الى فرنسا ( المترجم )

اشخاص طبيين ، اختصاصيين في الوسواس وحالات الضمير . فاعطوها ما ينتابكم من قلق ، فانها ستنقله الى الجزائر . وناموا قريري العين . »

ليتنا نستطيع النوم ، وليتنا نستطيع ان نجهل كل شيء ! ليتنا مفصولون عن الجزائر بجزر من الصمت ! وليتهم يخذعوننا **حقا** ! ان الاجنبي يستطيع انذاك ان يشك بذكائنا ، ولكنه لا يشك بسلامة طويتنا .

والواقع اننا لسنا سلمي الطوية . اننا قدرون . ان ضمائرنا لم تعكر ، وهي مع ذلك مبلبله . وحاكمونا يعرفون ذلك جيدا . وهم يحبوننا على هذا النحو : ان ما يريدون الحصول عليه بعناياتهم المرفهة ومراعاتهم المملنة ، انما هو اشتراكنا في الجريمة ، تحت ستار جهل مزيف . فان **الناس جميعا** ، قد سمعوا بالوان التعذيب ، وقد تسرب منها انباء الى الصحف الكبيرة رغم كل شيء ، ونشرت بعض الصحف الشريفة الصغيرة شهادات مختلفة ، وتداولت الايدي نشرات ، وعاد جنود يتحدثون . . ولكن هذا هو بالذات ما يخدم مفسدي المعنويات : لان كل شيء يضل او ينبت في الكثافة الاجتماعية ، ويجب ان تشسق الدروب للانباء الآتية من هناك ، ثم يعطف الدرب وتموت الانباء . وهذه الصحف والنشرات لم يقرأها معظم الفرنسيين وهم لا يستطيعون قراءتها : وانما هم يعرفون اشخاصا يقرأونها وكثيرون منا لم يسمعو قط مجندا يتكلم ، وانسا نقل اليهم ما كان يقوله بعض العسكريين . وهذه الشهادات البعيدة ، التي نقلت فما لاذن ، وكذبت رسميا ، تصاب في اثناء التجوال بنقص تدريجي في الخطوة . وهنا تنتظرنا « العملية » وهنا ننتظر انفسنا ويا للأسف ! فلماذا نصدق هذه الروايات ؟ اين هي الوثائق ؟ اين هم الشهود ؟ اما الذين يصرحون بانهم مقتنعون ، فلانهم كانوا كذلك من قبل . صحيح انه لا يمكن رفض الامكانية بصورة « مسبقه » . . ولكن يجب الانتظار ، ويجب الا نصدر الحكم قبل ان نتيقن . واذن ، فاننا لا نحكم . ولكننا لا نستعلم كذلك . فما ان نحاول الحصول على اوراق الدعوى ، حتى يتحول مجتمعنا الواضح الى غابة عذراء : اننا نسمع من بعيد جدا ، وبصورة غامضة ، صوت الطبل ، وتأخذ نسير في دائرة مفرغة اذا اردنا الاقتراب منه . ثم نقول : حسبنا ما لدينا من هموم سخوية ولا حاجة الى الصاق هموم الاخرين بنا . ان من قضى نهاره

في العمل ، وتلقى في المكتب جميع مضايقات الحياة اليومية ، ينبغي الا يطالب منه ان يقضي السهرة وهو يجمع الاخبار عن العرب .

وتلك هي اولى اكاذيبنا - ليس على مفسدي المعنويات بعد الا ان يشبكو اذرعتهم ويقولوا : سوف ننجز العمل بانفسنا . والحق ان الهموم العملية لا تمنع انسانا من ان يقرأ الجريدة بعد العشاء ، ذلك ان الحكم في القضايا العامة يلهي عن القضايا الخاصة ، وان ذرف دموع رقيقة او الابتسلاام لعسر هضم عنيف ينسي الغضب المكبوت بعد

الظهر . ان الصحف تغازلنا : فهي تريد ان نؤمن بأننا طيبون . . . وهنا يكمن الكذب - وتبرير الكذب : اجل ان الادلة تعوزنا ، ولذلك لا نستطيع ان نصدق شيئاً ، على اننا لا نبحث عن هذه الادلة ، لاننا نعرف ، بالرغم منا . وما الذي كان يطلبه مفسدو المعنويات ؟ انهم يطلبون ذلك ولا شيء سواه : جهلاً معذوراً - وغير قابل للغفران اكثر فأكثر، يدلنا تدريجياً ويفرنا كل يوم من اولئك الذين كان علينا ان نحكم عليهم . حتى اذا أشبهناهم تماما ، صحننا : «جميع الناس اخوة !» ثم نرتمي بين اذرعهم .

اما كذبتنا الثانية ، فقد اعندوها لنا . ان الشرك هو لجنة الحماية . ليتنا نستطيع ان نوليها ثقتنا ! ولكن لنفرض اننا نريد ذلك ، فمن اين نستمد الخداع اللازم ؟ ما فائدة لجنة حين تتكاثر الجرائم والمذامع في طول الجزائر وعرضها ؟ من الذي ينبئها في مدينة الجزائر ، عما يجري في الريف ؟ ومن الذي يستشيرها ؟ وفي اي شيء ؟ اترأها ستذكر الناس بحقوق الانسان ؟ ان الجميع يعرفونها ، بما فيهم السيد لاكوست . وانما القضية ان يعترف بهذه الحقوق : فكيف يراد ان تبلغ ذلك ؟ اذا كان الوزير المقيم لا يستطيع ان ينهي الاعمال غير الشرعية ، أفيطان ان تزويده ببضعة مستشارين سيمكنه من القضاء على هذه الاعمال ؟ واذا كان يريد ويستطيع ان يقضي على التجاوزات ، فأية حاجة له بهم ؟ ولكن الواقع ان الحكومة قامت بحركة ما ، فصرح السيد موليه بأنه « قلق مضطرب » وانه يريد النور كله في الموضوع . فاذا نحن صدقناه فان لنا في ذلك الاعذار : ان الكلمة الانسانية مصنوعة لتصدق ، واذا نحن لم نصدقها ، فنحن معذورون اكثر : ان كلمة السيد موليه مصنوعة لتوضع موضع الشك . نحن نعرف ان لجنة التحقيق ستؤلف من رجال لا غبار عليهم ، ونعرف كذلك انها لن تستطيع ان تعمل شيئاً : ان نراهم تفيدنا في انها تقنع عجزهم . وهكذا نرفض الاء الحكومة الثقة ، ومع ذلك نعتمد عليها لتبديد حذرنا .

مجرمون . مجرمون مرتين . نحن نشعر باننا فريسة ضيق واضطراب ، ليس هو الهول بعد ، ولكنه الارهاص بأن الهول موجود ، قريب منا جدا ، وانه يتهددنا بحيث لا نستطيع ولا نريد ان ننظر اليه وجها لوجه . وفجأة ينبعث بريق يبهر العيون : « واذا كان هذا صحيحاً ؟ » وهكذا يجد كل منا جاره مريباً ويخشى ان يصبح هو مريباً في عين جاره . قد يختلف اصدقاء في الرأي حول حل القضية الجزائرية ولكن ذلك لا يمنعهم من ان يتبادلوا الاحترام . ولكن ما القول في الاعدامات بالجملة ؟ وما القول في اساليب التعذيب ؟ امن الممكن الاحتفاظ بشعور الصداقة تجاه من يقرها ؟ ان كل انسان يصمت ، وكل انسان ينظر الى جاره الصامت ، وكل انسان يتساءل : « ما الذي يعرفه ؟ ما الذي يظنه ، ما الذي قرر ان ينسأه ؟ » ان

الناس يخشون ان يتحدثوا فيما بينهم ، الا اذا كانوا في اتجاه فكري واحد . فاذا اتفق ان اكتشفت مجاملة مجرمة لدى الانسان الذي شد على يدي ، فان هذا الرجل لا يقول شيئاً ، ومن لا يقول شيئاً يوافق . غير اني ، انا ايضا ، لا اقول شيئاً . ولكن لنفرض انه كان هو الذي يأخذ علي ضعفي وميوعتي ؟ ان الحذر يعلمنا عزلة جديدة : اننا موصولون عن مواطنينا بدافع من خوف ان تحتقر او تحتقر . والحق ان هذا شيء واحد ، لاننا جميعاً متشابهون ونحن نخشى ان نسأل الناس لان جوابهم يوشك ان يكشف عن انحطاطنا . فاذا همس لنا احدهم مثلاً ، من غير عنف ، ليتخلص من قلقه وضيقة بأسرع ما يمكن : « والثوار ؟ ألم يرتكبوا الفظائع ؟ » نفهم فجأة ان الخوف والرفض والصمت قد اسقطتنا مرة ثانية في عصور الثأر البربرية . ان الفرنسيين بكلمة واحدة ، ذوو ضمائر فاسدة - ربما باستثناء السيد موليه ! وهذه الضمائر هي التي جعلنا مجرمين : انتمزقات فكرنا ، ولعبة « الاستخياء » التي نلعبها في داخلنا ، وهذه الصايح التي نخفف نورها ، وهذا الرياء المؤلم . . . ينبغي الا نجد فيها كايها طريق خلاصنا ، بل اشارة انحلال عميق . اننا نفرق . وقد بدأت نأثرتنا ثور اذ نرى الآخرين يصدرن حكمهم علينا ، فيفرقنا غضبنا اكثر فأكثر في الاشتراك بالجرم : « لا يحق لاميركا ان تتكلم ! لو كنا نعامل زونجا كما يعاملون هم زونجهم ! . . » هذا صحيح . فانه لا يحق لاميركا ان تتكلم . ولا يحق كذلك للسويد التي لا مستعمرات لها . لا يحق لاحد ان يتكلم : اما نحن فمن واجبنا ان نتكلم . وها نحن اولاء لا نتكلم . ان هناك مخبرين شرفاء ، شجعان ،

دار الآداب

تقدم

# سلسل الجلد

مجموعة قصص لـ

الدكتور محمد براهه

صدر حديثاً

## شركة خياط للكتب والنشر ( ش م ل )

٩٢ - ٩٤ شارع بلس - ص.ب ٦٠٩١  
بيروت - لبنان - تلفون ٣٤٤٩٩٨

يسرهما ان تقدم

الموسوعتين الكبيرتين

### موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصوره ومناطقه منذ  
العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة .  
٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي  
٩٠ شاعرا من العصر المخزوم  
٢٤٥ شاعرا من العصر الاموي  
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي  
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي  
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط  
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية  
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر ، حياته ، بيئته ، شعره ،  
عرض مشوق لافكار الشاعر واغراضه ومقاصده .  
في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعر العربي قديمه  
وحديثه ، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع  
المتوسط .

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة  
واحدة تصدر اجزاؤها تباعا .

### موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضي المعمارية  
في ٢٠٠ لوحة أكثر من نصفها بالالوان ، تضمها ثلاثة  
مجلدات كبيرة ، أصدرتها مكتبة خياط للكتب  
والنشر في بيروت وباريس ، وهي أجمل هدية عن  
الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين »  
الذي كان قد درس طوال اعوام مظاهر الفن العربي ،  
ليخرج هذه الموسوعة عن أجمل آثار العالم الاسلامي .  
تحفة رائعة تزين مكتبة بيتك او مكتبك ،  
وتصور ادق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفون  
والقائمون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

اطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ،  
شارع بلس بيروت ، او من فرعها في باريس :

Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne  
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33

يقولون ما يعرفون ، كل يوم او كل اسبوع : فاذا نحن  
نريد هدمهم او سجنهم ، وهكذا يقل الاستماع اليهم . ولكن  
ماذا دهمى الاصوات الشريفة الكبيرة التي اهتزت كالارغن في  
تشرين الثاني الماضي ؟ لقد صعّدنا من براءتنا نبرات حنق  
وغيظ لنسحب بـ بحق - التدخل السوفياتي في المجر .  
ولكن لماذا لا تلتزمون يا اصحاب الاصوات الكبيرة ، ان  
تقولوا لنا كل شيء عن انفسنا ؟ انكم تعرفون ، انتم .  
وليس لكم حتى عذر أجهل . انتم تعرفون الوثائق  
والشهادات . ان الامر يتعلق بنا اليوم ، ونحن بحاجة الى  
ان نعرف ، وان نصدق . اننا نحن الذين نستطيعون ان  
تخلصونا من كوابيسنا وتنقذونا من العار . ولكنكم تصمتون  
وانه لحساب خاطيء الا يحكم علينا من صمتكم اليوم ، بل  
من صخبكم في تشرين الماضي .

لماذا ؟ لان الفم يفلق الان ، ولاننا سنحشر في شرك  
حقير ، وفي موقف سبق لنا ان شجبناه نحن انفسنا ،  
لسوء حظنا . انها براءة مزيفة ، وهرب ، ورياء ، وعزلة  
وصمت ومشاركة في الجرم مرفوضة ومقبولة ، وهذا ما  
دعونا عام ١٩٤٨ بالمسؤولية الجماعية  
ما كان ينبغي للشعب الالماني ، في تلك الفترة ، ان يجهل  
وجود المعسكرات . لقد كنا نقول : « كفى هذا . لقد  
كانوا يعرفون كل شيء ! » وكنا على حق ، فقد كانوا يعرفون  
كل شيء ، واليوم فقط نستطيع ان ندرك ذلك : فاننا نحن  
ايضا نعرف كل شيء . ان معظم الالمان لم يكونوا قد راوا  
« داشو » ولا « بوشانوالد » ، ولكنهم كانوا يعرفون اشخاصا  
عرفوا آخرين قد راوا الاسلاك الشائكة او راجعوا بطاقات  
سرية في احدى الوزارات . وقد كانوا يظنون مثلنا ان هذه  
الانباء لم تكن موثوقة ، فكانوا يصمتون ، وكان يحذر بعضهم  
بعضا . افنجرؤ بعد على الحكم عليهم ؟ او نجرؤ على تبرئة  
انفسنا ؟ كم يجب عاينا ان نسط من الفرش في ساحة  
« الكونكورد » لننسى العالم ان اطفالا يعذبون باسمنا واننا  
نحن نصمت ؟

انه لم يفت الاوان بعد لاحباط عمل ملتزمي الهدم القومي ،  
وما زال ممكنا تحطيم الدائرة الجهنمية لهذه المسؤولية  
اللا مسؤولة ، هذه البراءة المجرمة ، هذا الجهل الذي هو  
معرفة : فلننظر الى الحقيقة ، فهي ستتيح لكل منا ان  
نشجب علنا الجرائم المقترفة ، واما نتبناها ونحن واعون .  
من اجل هذا وجدت ضروريا ان ادل الجمهور على كتاب  
المجندين العائدين . فهنا الحقيقة ، وهنا الهول ، هولنا :  
فنحن لن نستطيع ان نراه من غير ان نترعه من انفسنا  
ونسحقه .

جان بول سارتر

ترجمة « الاداب »